

رايات الإسلام

١٠



في المنصوِّرة



Bibliotheca Alexandrina



0029578

مجموعة المؤلفات المكتبة الاسكندنافية

م. ط. ٢٠٠٢ : ٢٠٠٢

٥٤٠٦

رقم التسجيل : ٥٤٠٦

رايات الإسلام

١٠

في المنصورية

بقلم : وصفي آل وصفي

الطبعة الثانية



دارالمعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

رايات الإسلام

بَدَأَ الْقَرْنُ السَّابِعُ الْمِيلَادِيُّ وَالْعَرَبُ فِي شِبْهِ الْجَزِيرَةِ ضِعَافٌ
وَمُتَفَرِّقُونَ ، يَطْفَى عَلَيْهِمُ الْفُرسُ بِالْعِرَاقِ - فِي الشَّرْقِ . . وَالرُّومُ
بِالشَّامِ - فِي الشَّامِ . .
وَبِعَثَ الرَّسُولُ ﷺ فَغَيَّرَ الْإِسْلَامُ حَيَاةَ الْعَرَبِ تَغْيِيرًا
تَامًا . .

أَمَدَهُمْ بِقُوَّةٍ حَقَّقَتِ الْمُعْجَزَاتِ ، وَجَمَعَتْهُمْ - فِي ظِلِّ
رَايَاتِهِ - طُمَأْنِينَةً نَفْسِيَّةً تَنْبُعُ مِنْ سَمَاحَتِهِ . . وَحِمَاسَةً بُطُولِيَّةً
تَبْعُثُهَا فِيهِمْ أَهْدَافُهُ الْعَظِيمَةُ . .
وَكَانَتْ « مَكَّةُ » الْمَدِينَةُ الْأُولَى فِي شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الَّتِي تَمْتَدُّ
حَوَالَى أَلْفِ كَيْلُو مِثْرٍ مِنَ الشَّرْقِ إِلَى الْغَرْبِ . . وَمَا يَزِيدُ عَلَى
ذَلِكَ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّامِ ، لَكِنَّ هِجْرَةَ الرَّسُولِ ﷺ
نَقَلَتْ مَقَرَّ الْقِيَادَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ إِلَى « يَثْرِبَ » الَّتِي أَصْبَحَتْ تُعْرَفُ
بِاسْمِ « الْمَدِينَةِ » . .

وَتُوفِيَ الرَّسُولُ فِي الْعَامِ الْحَادِي عَشَرَ الْهَجْرِيِّ - السَّنَةِ
 ٦٣٢ الْمِيلَادِيَّةِ - فَتَتَابَعَ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ بِالْمَدِينَةِ ، وَمِنْهَا
 خَرَجَتْ رَايَاتُ الْإِسْلَامِ لِتُوحِدَ شِبْهَ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، ثُمَّ
 انْطَلَقَتْ إِلَى الْعِرَاقِ وَالشَّامِ وَمِصْرَ . . تُبَشِّرُ الشُّعُوبَ بِالتَّحْرِيرِ
 وَتُرْفُ إِِلَيْهَا الْعَدْلَ وَالْحَرِيَّةَ . . وَتَصْحَبُ الْمُؤْمِنِينَ فِي مَعَارِكِ
 خَالِدَةٍ مَا تَزَالُ أَخْبَارُهَا تُرَوَّى فَتُثِيرُ الْإِعْجَابَ لَدَى الْقَادَةِ
 وَالْجُنُودِ ، وَتَغْرِسُ الْعِزَّةَ فِي نَفُوسِ النَّاشِئَةِ . .



في المنصورة

٩

في أَوَاخِرِ الْقَرْنِ الْحَادِي عَشَرَ الْمِيلَادِيَّ جَاءَتْ أُولَى
الْحَمَلَاتِ الصَّلِيبِيَّةِ إِلَى بِلَادِ الشَّامِ ، يَقُودُهَا أُمَرَاءُ أَوْرَبًا
وَيُبَارِكُهَا بَابَا «رُومًا» . . الرَّئِيسُ الدِّينِيُّ لِلْكَنِيسَةِ
الْكَاثُولِيكِيَّةِ . .

جَاءَتْ تَحْمِلُ شِعَارَ الصَّلِيبِ عَلَى أَعْلَامِهَا ، وَشَهْوَةُ
السَّيْطَرَةِ وَالْاِسْتِغْلَالِ فِي قُلُوبِ قَادَتِهَا . .

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ وَالصَّلِيبِيُّونَ يَتَطَلَّعُونَ إِلَى مِصْرَ ،
وَلَا يَكْفُونَ عَنْ مُهَاجَمَتِهَا بَرًّا وَبَحْرًا . أَذْرَكُوا أَنَّ مِصْرَ هِيَ
مَرَكَزُ الثَّقَلِ فِي حَرَكَةِ الْمُقَاوِمَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي لَمْ تَهْدَأْ يَوْمًا مُنْذُ
أَغَارُوا عَلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ حَتَّى ائْتَدَحَرُوا وَانْسَحَبُوا مِنْهَا ،
فَحَاوَلُوا الْقَضَاءَ عَلَى تِلْكَ الْقُوَّةِ لِيَتَيَسَّرَ لَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ إِخْضَاعُ

الْأَقْطَارِ الْإِسْلَامِيَّةِ كُلِّهَا . لَكِنَّ الْعِنَايَةَ الْإِلَهِيَّةَ بَعَثَتْ فِي الْأُمَّةِ
الْإِسْلَامِيَّةِ رِجَالًا حَمَلُوا رَايَاتِهَا عَالِيَةً خَفَاقَةً ، وَتَصَدَّقُوا لِلْعُدُوِّ
كُلَّمَا حَشَدَ الْعُدُوُّ حَمَلَةً صَلِيبِيَّةً جَدِيدَةً .

مِنْ هَؤُلَاءِ الرِّجَالِ الْبَطْلُ الْكَبِيرُ «صَلَاحُ الدِّينِ الْأَيُّوبِيُّ» ،
الَّذِي انْتَصَرَ عَلَى الصَّلِيبِيِّينَ انْتِصَارًا حَاسِمًا فِي مَعْرَكَةِ «حِطِّينَ»
الْمَشْهُورَةِ عَامَ ٥٨٣ هِجْرِيٍّ - ١١٨٧ مِيلَادِيٍّ - وَاسْتَرَدَّ
مَدِينَةَ «الْقُدْسِ» فِي الْعَامِ نَفْسِهِ . .

غَيْرَ أَنَّ وِفَاةَ «صَلَاحِ الدِّينِ» عَامَ ٥٨٩ هِجْرِيٍّ ، ١١٩٣
الْمِيلَادِيٍّ ، تَرَكَتْ فَرَاغًا كَبِيرًا فِي الْوَحْدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ . . تِلْكَ
الْوَحْدَةُ الَّتِي كَانَتْ السَّبَبَ الرَّئِيسِيَّ فِي هَزِيمَةِ الصَّلِيبِيِّينَ . ثُمَّ
اِخْتَلَفَ أَبْنَاؤُهُ وَإِخْوَتُهُ وَأَبْنَاءُ عَمِّهِ ، وَتَنَازَعُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ ،
فَأَصَابَهُمُ الضَّعْفُ جَمِيعًا . .

وَالضَّعْفُ أَطْمَعَ فِيهِمُ الصَّلِيبِيِّينَ مِنْ جَدِيدٍ !
مَضَتْ سَبْعُ سَنَوَاتٍ عَلَى وِفَاةِ صَلَاحِ الدِّينِ وَالْحُرُوبُ
الدَّاخِلِيَّةِ تُمَزَّقُ الْأَقْطَارَ الْإِسْلَامِيَّةَ ، ثُمَّ هَبَّ أَخُوهُ الْأَكْبَرُ
«أَبُو بَكْرُ بْنُ أَيُّوبَ» فَأَمْسَكَ بِرِزَامِ الْأُمُورِ فِي الْقَاهِرَةِ وَتَلَقَّبَ

بِالْمَلِكِ «الْعَادِلِ» . . وَأَعَادَ تَوْحِيدَ مِصْرَ وَالشَّامِ . .
 وَفِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ كَانَ مُلُوكُ أُورُبَّا وَأُمَرَاؤُهَا يَعْمَلُونَ لِانْتِزَاعِ
 بَيْتِ الْمَقْدِسِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَبَابَا رُومًا يَدْعُو لِإِعْدَادِ حَمَلَةٍ
 صَلِيبِيَّةٍ - الْحَمَلَةُ الرَّابِعَةُ - يَكُونُ هَدْفُهَا الْاسْتِيلَاءُ عَلَى مِصْرَ ،
 وَاسْتِخْدَامَ مَوْقِعِهَا الْجُغْرَافِيِّ الْمُمْتَازِ فِي احْتِلَالِ مِنْطَقَةِ «الشَّرْقِ
 الْأَوْسَطِ» .

غَيْرَ أَنَّ هُجُومَ تِلْكَ الْحَمَلَةِ عَلَى مِصْرَ لَمْ يُسْفِرْ إِلَّا عَنْ غَارَةٍ
 لَا قِيَمَةَ لَهَا ، اسْتَهْدَفَتْ مِينَاءَ «رَشِيد» عَامَ ١٢٠٤ الْمِيلَادِيِّ ،
 عُقِدَتْ بَعْدَهَا الْهُدْنَةُ بَيْنَ الْمَلِكِ الْعَادِلِ وَمَلِكِ «عَكَا»
 الصَّلِيبِيِّ . .

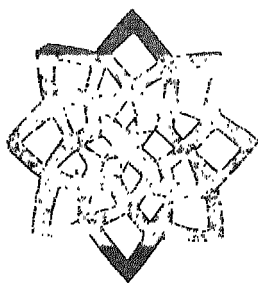
لَكِنَّ بَابَا رُومًا لَمْ يَرْضَ بِذَلِكَ ، وَرَاحَ يَسْتَصْرِخُ الْمُلُوكَ
 وَالْأُمَرَاءَ الْمَسِيحِيِّينَ وَيُحَرِّضُ رِعَايَاهُمْ . . دَاعِيًا لِحَمَلَةٍ صَلِيبِيَّةٍ
 جَدِيدَةٍ تُحَقِّقُ مَا كَانَ يَطْمَعُ فِيهِ مِنْ نَفُوزِ دِينِهِ عَلَى مَسِيحِيَّةِ
 الشَّرْقِ وَأَرْسَلَ فِي عَامِ ١٢١٦ الْمِيلَادِيِّ يَطْلُبُ مِنَ الْمَلِكِ
 الْعَادِلِ تَسْلِيمَ مَدِينَةِ الْقُدْسِ ، وَيُهْدِدُهُ بِغَزْوِ مِصْرَ إِذَا لَمْ
 يَفْعَلْ . .

وَأَخِيرًا جَاءَتْ الْحَمْلَةُ الصَّلِيبِيَّةُ - الْخَامِسَةُ - إِلَى مِصْرَ ،
وَنَزَلَتْ عَلَى مَقَرَّةٍ مِنْ مِينَاءِ « دِمْيَاط » . وَكَانَ الْمَلِكُ الْعَادِلُ
الَّذِي بَلَغَ الْخَامِسَةَ وَالسَّبْعِينَ يُقِيمُ بِدِمِشْقَ مَرِيضًا ، فَلَمْ يَلْبِثْ
أَنْ تُوفِّيَ عِنْدَمَا صَدَمَتْهُ أَخْبَارُ الْعُدْوَانِ الصَّلِيبِيِّ . . وَتَوَلَّى الْأَمْرَ
مِنْ بَعْدِهِ . . ابْنُهُ . . « نَاصِرُ الدِّينِ » الْمَعْرُوفُ بِاسْمِ الْمَلِكِ
« الْكَامِلِ » . .

أَسْرَعَ الْمَلِكُ الْجَدِيدُ مِنَ الْقَاهِرَةِ إِلَى « فَارَسْكُور » عَلَى فَرَعِ
دِمْيَاطَ مِنْ نَهْرِ النَّيْلِ اسْتِعْدَادًا لِقِتَالِ الصَّلِيبِيِّينَ ، إِلَّا أَنَّ هَوْلَاءِ
تَمَكَّنُوا مِنْ دُخُولِ دِمْيَاطَ عَامَ ١٢١٩ الْمِيلَادِيِّ ، فَفَضَّلَ
الْكَامِلُ أَنْ يَنْتَظِرَ وَصُولَ الْمَدَدِ مِنَ الْأَقْطَارِ الْإِسْلَامِيَّةِ . . وَغَادَرَ
فَارَسْكُورَ إِلَى الْجَنُوبِ حَيْثُ اخْتَارَ لِمَعْسِكَرِهِ مَوْقِعًا جَدِيدًا عَلَى
النَّيْلِ يَحْمِيهِ الْمَاءُ مِنَ الشَّمَالِ وَمِنَ الْغَرْبِ . وَبَيْنَمَا كَانَ
الصَّلِيبِيُّونَ فِي دِمْيَاطَ مَشْغُولِينَ بِالْخِلَافِ بَيْنَ قَادَتِهِمْ ،
وَمُنْهَمِكِينَ فِي تَحْوِيلِ مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ إِلَى كَنِيسَةٍ كَانَ الْمَلِكُ
الْكَامِلُ يُحَصِّنُ مَعْسِكَرَهُ الْجَدِيدَ وَيُنِي فِيهِ الْبُيُوتَ
وَالْمَخَازِنَ . .

وَفِي عامِ ١٢٢١ المِلاَدِي سَارَ الصَّليُّونَ جَنُوبًا يُريدُونَ
 بُلُوغَ القَاهِرَةِ ، فَاعْتَرَضَتْهُمُ القُوَّاتُ الإِسْلَامِيَّةُ . . وَنَجَحَتْ فِي
 الِاتِّفَافِ مِنْ حَوْلِهِمْ . . بَرًّا وَفِي النَّيْلِ . . فَقَطَعَتْ عَلَيْهِمُ خَطَّ
 الرُّجْعَةِ ، وَحَالَتْ دُونَ وُصُولِ النُّجَدَاتِ إِلَيْهِمْ مِنْ دِمْيَاطَ . .
 وَسُرْعَانَ مَا اضْطُرَّ الصَّليُّونَ إِلَى طَلَبِ الصُّلْحِ ، وَالْجَلَاءِ
 عَنِ الأَرْضِ المِصْرِيَّةِ . .

وَبِهَذِهِ المُنَاسِبَةِ أَقَامَ « الكَامِلُ » اخْتِفَالًا كَبِيرًا بِمُعَسْكَرِهِ الَّذِي
 اسْتَعْرَقَ بِنَاوُهُ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ شَهْرًا وَأَصْبَحَ مَدِينَةً صَغِيرَةً ، وَمُنْذُ
 ذَلِكَ الحِينِ عُرِفَ بِاسْمِ « المَدِينَةِ المَنْصُورَةِ » !
 وَفِي المَنْصُورَةِ . . انْتَصَرَتْ رَايَاتُ الإِسْلَامِ انْتِصَارًا
 آخَرَ . . عَظِيمًا !

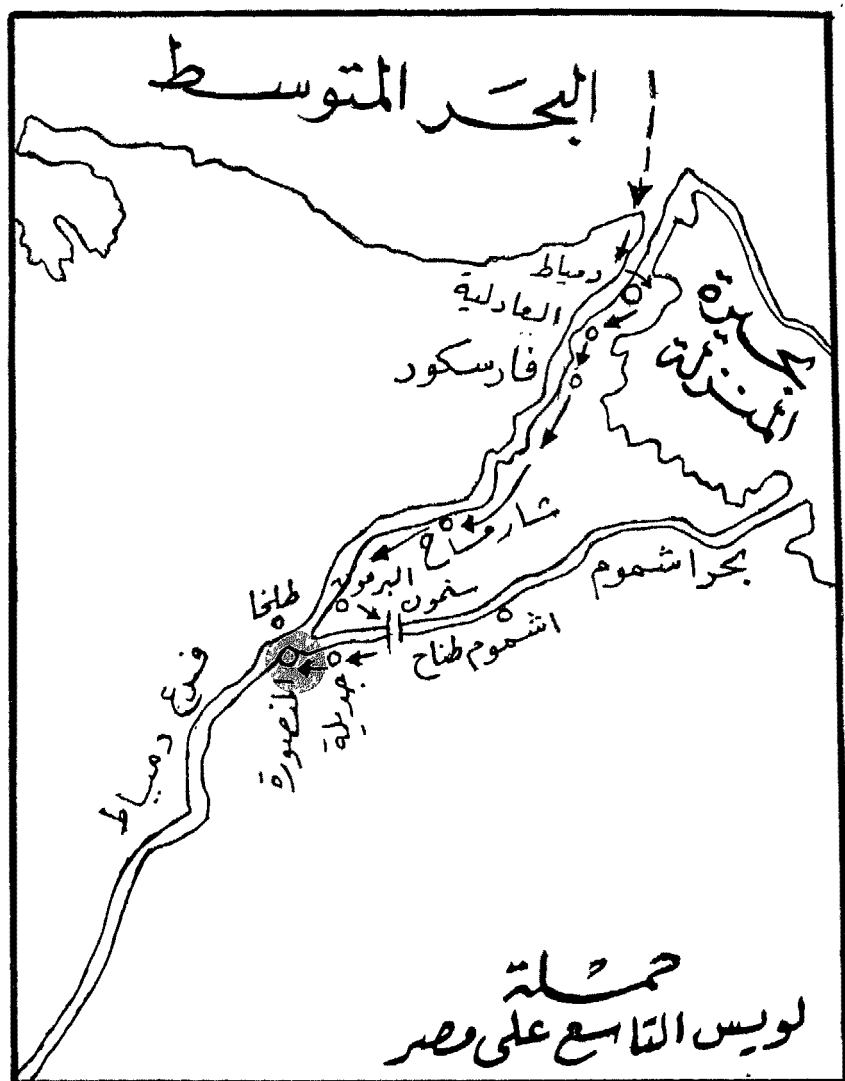


تُوفِّيَ «الْكَامِلُ» عامَ ١٢٣٩ المِيلادِيّ فَنَشِبَ الْخِلَافُ بَيْنَ
وَلَدَيْهِ ، لَكِنَّ أَكْبَرَهُمَا - «الصَّالِحُ أَيُّوبُ» - اسْتَطَاعَ أَنْ يَنْفَرِدَ
بِالْحُكْمِ بَعْدَ مَعَارِكٍ كَثِيرَةٍ مَعَ الْأُمَرَاءِ الْأَيُّوبِيِّينَ .
وَتَصَدَّى «الصَّالِحُ أَيُّوبُ» لِلصَّلَيبِيِّينَ فَأَوْقَعَ بِهِمْ هَزَائِمَ
مُتَلَاحِقَةً ، ثُمَّ حَاصَرَهُمْ بَرًّا وَبَحْرًا فِي «عَسْقَلَانَ» وَطَرَدَهُمْ مِنْهَا
عامَ ١٢٤٧ المِيلادِي . .

وَتَفَرَّغَ بَعْدَ ذَلِكَ لِتَرْمِيمِ الْحُصُونِ فِي مِصْرَ وَالشَّامِ . .
لَكِنَّ الصَّلَيبِيِّينَ لَمْ يَفِيقُوا مِنْ أَحْلَامِهِمْ ، وَلَمْ يَرْجِعُوا عَنْ
غِيَّهِمْ . .

مَرِضَ مَلِكُ فَرَنْسَا «لُيْسُ» التَّاسِعُ ، فَذَرَّ لِلَّهِ نَذْرًا . .
لَمْ يَجِدِ الْمَلِكُ الْأُورُبِّيُّ مَا يَنْذِرُهُ لِلَّهِ ، إِنْ شَفَاهُ ، إِلَّا أَنْ
يَخْرُجَ إِلَى الشَّرْقِ عَلَى رَأْسِ حَمَلَةٍ صَلِيبِيَّةٍ !
وَرَحَّبَ الْبَابَا بِنَذْرِ الْمَلِكِ الْفَرَنْسِيِّ .

وَنَشِطَ الْاِثْنَانِ - الْمَلِكُ وَالْبَابَا - لِدَعْوَةِ الْمَسِيحِيِّينَ فِي أَنْحَاءِ

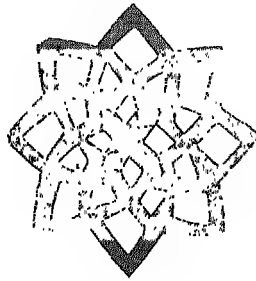


أوربا للمشاركة في الحملة ، وسعى الاثنان إلى التحالف مع «التتار» الوثنيين لينقضوا على المسلمين من ناحية الشرق، على حين تطبق عليهم حملة «لويس» من ناحية الغرب ! لم يستجب التتار لمحاولات الصليبيين ، المتكررة ، فقاد «لويس» حملته إلى مصر بعد استعدادات استمرت ثلاث سنوات . بدأت قوات الحملة تتجمع في جزيرة «قبرص» ، ثم تحركت منها إلى الشاطئ المصري ، واحتلت ميناء دمياط في منتصف عام ١٢٤٩ الميلادي .

وعلى الرغم من مرض «الصالح أيوب» الشديد ، فقد هرع من دمشق حيث كان يقيم . . تصحبه زوجته «شجرة الدر» . وجاء إلى مصر محمولا على أكتاف رجاله ، ثم نقلته سفينة في النيل إلى المنصورة ، وهناك نزل بالقصر الذي بناه فيها «الكاamil» واتخذهُ مقراً لقيادته . .

وسرعان ما احتشد بالمنصورة جيش «المماليك البحرية» الذي حرص «الصالح أيوب» على تنظيمه وتقويته منذ تولّى الحكم ، وكذلك وفد إليها عدد كبير من المقاتلين البدو . .

وَرِجَالُ الدِّينِ .. وَالصُّنَّاعِ .. وَرَسَا عَلَى شَاطِئِهَا مُخْتَلَفُ
الْأَنْوَاعِ مِنَ السُّفُنِ الْحَرِّيَّةِ ..
وَلَمْ يَمْضِ وَقْتُ طَوِيلٍ حَتَّى التَّقَى الْجَانِبَانِ : الْإِسْلَامِيُّ
وَالصَّلِيبِيُّ - فِي صِرَاعٍ شَدِيدٍ !



نَظَّمَ «الصَّالِحُ أَيُّوبُ» غَارَاتِ خَاطِفَةٍ عَلَى الصَّلِيبِيِّينَ فِي
دِمْيَاطَ ، وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ كَانَ الْمِصْرِيُّونَ يَعُودُونَ إِلَى الْمَنْصُورَةِ
بِعَدَدٍ مِنَ الْأَسْرَى . فَلَمَّا عَزَزَتِ النَّجْدَاتُ قُوتَ «لُؤَيْسِ»
خَرَجَ مِنْ دِمْيَاطَ مُتَّجِهَاً إِلَى الْمَنْصُورَةِ ، تَسِيرُ سَفْنُهُ فِي النَّيْلِ
وَتَرْحَفُ كَتَائِبُهُ بَرًّا . .

وَبَلَغَتْ أَخْبَارُ الْحَمَلَةِ «الصَّالِحِ أَيُّوبَ» ، فَأَعْتَرَمَ الصُّمُودَ
فِي الْمَنْصُورَةِ وَمَنَعَ الصَّلِيبِيِّينَ مِنَ الْإِنْدِفَاعِ إِلَى الْقَاهِرَةِ . لَكِنَّ
الْقَدَرَ لَمْ يُمَهِّلْهُ ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ تُوفِّيَ قَبْلَ أَنْ يَقْتَرِبَ الْأَعْدَاءُ مِنَ
الْمَنْصُورَةِ . .

عِنْدَئِذٍ بَادَرَتْ زَوْجَتُهُ «شَجَرَةُ الدَّرِّ» إِلَى مُعَالَجَةِ الْمَوْقِفِ
بِشَجَاعَةٍ وَذَكَاءٍ . .

أَخْفَتْ خَبَرَ مَوْتِهِ ، فَلَمْ يَعْلَمْ بِهِ غَيْرُ الْأَمِيرِ «فَخْرِ الدِّينِ»
الْقَائِدِ الْعَامِّ لِلْجَيْشِ الْمِصْرِيِّ ، وَخَادِمِ الْمَلِكِ . .
أَعْلَنْتْ أَنَّ زَوْجَهَا مَرِيضٌ لَا يَسْتَقْبِلُ غَيْرَ أَطِبَائِهِ . . وَتَعَاوَنَ

مَعَهَا هَؤُلَاءِ الْأَطِبَّاءُ فَكْتُمُوا السِّرَّ ، وَبَعَثْتُ تَسْتَدْعِي ابْنَهُ
« طُورَان شَاه » الَّذِي كَانَ يُقِيمُ خَارِجَ مِصْرَ . . وَجَمَعْتُ قُوَادَ
الْمَمَالِكِ الْبَحْرِيَّةِ تَرَسُّمَ مَعَهُمُ الْخُطَطَ لِوَقْفِ التَّقْدُّمِ
الصَّليبيِّ . .

غَيْرَ أَنَّ الصَّليبيينَ تَمَكَّنُوا مِنْ دُخُولِ فَارَسْكُورَ ، وَمِنْهَا
سَارُوا حَتَّى وَصَلُوا إِلَى شِمَالِ الْمَنْصُورَةِ . وَهُنَاكَ أَقَامُوا
مُعَسَكَرَهُمْ عَلَى الصُّفَّةِ الشَّمَالِيَّةِ بِفَرْعِ النَّيْلِ الْمَعْرُوفِ بِاسْمِ
« بَحْرِ أَشْمُوم طَنَاح » ، وَجَاءَتْ سُفُنُهُمْ فَرَسَتْ بِالْقُرْبِ مِنْ
الْمُعَسَكَرِ .

وَشَرَعُوا يَبْنُونَ جِسْرًا مِنَ السُّفُنِ وَالْأَخْشَابِ ، لِيَعْبُرُوا عَلَيْهِ
النَّهْرَ إِلَى الْمَنْصُورَةِ ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَنْجَحُوا فِي إِتِمَامِ مَشْرُوعِهِمْ
عَلَى الرَّغْمِ مِنَ الْمَحَاوَلَاتِ الْعَدِيدَةِ الَّتِي قَامُوا بِهَا ، فَقَدْ
تَصَدَّى لَهُمُ الْمِصْرِيُّونَ بِقِيَادَةِ الْأَمِيرِ « فُخْرِ الدِّينِ » مِنْ مُعَسَكَرِهِ
الْمُوَاجِهَ لَهُمْ ، وَرَاحُوا يَرْمُونَهُمْ بِالْقَذَائِفِ الْمُلْتَهَبَةِ فَيَحْرِقُونَ
مَا يَبْنُونَهُ أَوَّلًا بِأَوَّلٍ . . وَكَلَّمَا تَقَدَّمُوا فِي النَّهْرِ مَسَافَةً قَصِيرَةً حَفَرَ

المُضْرِيُونَ الضِّفَّةَ مِنْ نَاحِيَّتِهِمْ بِقَدَرٍ تَقْدُمِهِمْ ، فَتَبَقَى الْمَسَافَةُ
ثَابِتَةً .

وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ كَانَ الْفُرْسَانُ الْمُضْرِيُونَ يَعْبُرُونَ بَحْرَ
أَشْمُومٍ وَيُفَاجِئُونَ الصَّلِيبِيِّينَ فِي قَلْبِ مُعَسْكِرِهِمْ ، كَمَا أَنَّ
الْأَهَالَيَ مِمَّنْ يُجِيدُونَ السَّبَاحَةَ كَانُوا يَنْزِلُونَ إِلَى الْمَاءِ فَيَقْتَرِبُونَ مِنْ
مُعَسْكِرِ الصَّلِيبِيِّينَ وَيَتَخَفَّفُونَ بَعْضَهُمْ !

وَكَادَ الْيَأْسُ يَغْلِبُ الْمَلِكَ «لُويْس» وَقَوَادُهُ عِنْدَمَا تَبَيَّنُوا أَنَّ
الْمُضْرِيَّيْنَ لَنْ يُمْكِنُوهُمْ مِنْ إِقَامَةِ الْجِسْرِ أَبَدًا ، لَكِنَّ الْخِيَانَةَ
فَتَحَتْ لَهُمْ بَابًا جَدِيدًا مِنَ الْأَمَلِ . . فَقَدْ دَلَّهُمْ أَحَدُ الْخَوَنَةِ
عَلَى مَخَاضَةٍ عَبْرَ بَحْرِ أَشْمُومٍ ، بَعِيدَةٍ بَعْضَ الشَّيْءِ عَنْ
الْمَنْصُورَةِ ، فَاجْتَازُوهَا إِلَى الضِّفَّةِ الْأُخْرَى . .

وَقَبِضَ الْخَائِنُ ثَمَنَ خِيَانَتِهِ مَبْلَغًا كَبِيرًا مِنَ النُّقُودِ الذَّهَبِيَّةِ !

بَدَأَ الصَّلِيبِيُّونَ يَعْبرُونَ النَّيْلَ فِي الْفَتْرَةِ الْأَخِيرَةِ مِنَ اللَّيْلِ
بِقِيَادَةِ «الْكُونْت - آرتوا» شَقِيقِ الْمَلِكِ «لويس» ، فَلَمَّا انْتَشَرَ
ضَوْؤُ الْفَجْرِ فُوجِيَ الْفُرْسَانُ الْمَصْرِيُّونَ الْمُكَلَّفُونَ بِالْحِرَاسَةِ عِنْدَ
الْمَخَاضَةِ بِعَدَدٍ كَبِيرٍ مِنَ الْأَعْدَاءِ يَصْطَفُونُ عَلَى الشَّاطِئِ الْجَنُوبِيِّ
لِلنَّهْرِ . وَرَأَتْ قُوَّةُ الْحِرَاسَةِ الْمِصْرِيَّةِ نَفْسَهَا أَوْضَعَفَ مِنْ أَنَّ
تَثْبِتَ لِلصَّلِيبِيِّينَ ، فَاسْرَعَتْ مُتَرَجِعَةً إِلَى مُعَسْكَرِ الْأَمِيرِ
«فَخِرِ الدِّينِ» . . .

وَكَانَتْ تَعْلِمَاتُ الْمَلِكِ «لويس» تَقْضِي بِأَنْ تَنْتَظِرَ الْفِرْقُ
الَّتِي تَجْتَازُ الْمَخَاضَةَ أَوَّلًا إِلَى أَنْ يَتِمَّ عُبُورُ بَقِيَّةِ الْجَيْشِ ، لَكِنَّ
«الْكُونْت آرتوا» شَاهَدَ الْفُرْسَانَ الْمِصْرِيِّينَ يَرْتَدُّونَ فَأَرَادَ انْتِهَازَ
الْفُرْصَةِ لِتَحْقِيقِ نَصْرِ عَاجِلٍ يُنْسَبُ إِلَيْهِ وَحْدَهُ . . . وَانْدَفَعَ
يُطَارِدُ الْمِصْرِيِّينَ بِمَنْ مَعَهُ . . .

وَجَاءَ الْفُرْسَانُ الْمِصْرِيُّونَ إِلَى مُعَسْكَرِ الْأَمِيرِ «فَخِرِ الدِّينِ»
فَوَثَبَ الْقَائِدُ الْمِصْرِيُّ عَلَى جَوَادِهِ وَتَقَدَّمَ فِي عَدَدٍ قَلِيلٍ مِنْ رِجَالِهِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ

لِصَدِّ الْهَجْمَةِ الصَّلِيبِيَّةِ . . وَاسْتُشْهِدَ مُقَاتِلًا . .

وَسَالَ لَعَابُ « الْكُونْتِ » الْفَرَنْسِيِّ !

الْقَائِدُ الْمَضْرِيُّ قُتِلَ ، وَالْإِضْطِرَابُ يَعُمُّ الْمَعْسَكَرَ فَيَفِرُّ
الْجُنُودُ إِلَى الْمَنْصُورَةِ وَمِنْ خَلْفِهِمْ كُلُّ مَنْ كَانَ بِالْمَعْسَكَرِ مِنْ
صُنَّاعٍ وَأَهَالِي . .

النَّصْرُ إِذَنْ قَرِيبٌ ، وَمَا عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَنْقُضَ عَلَى الْمَنْصُورَةِ
فَتَسْتَسْلِمَ لَهُ !

لَمْ يَسْتَمِعِ « الْكُونْتُ » لِمَنْ كَانَ مَعَهُ مِنَ الْقَوَادِ ، وَتَجَاهَلَ
أَوَامِرَ شَقِيقِهِ . وَانْطَلَقَ إِلَى الْمَنْصُورَةِ فَجَارَاهُ بَقِيَّةُ الْقَوَادِ ،
وَتَحَوَّلَ الْأَمْرُ إِلَى سَبَاقٍ بَيْنَهُمْ نَحْوَ النَّصْرِ الَّذِي خِيلَ إِلَيْهِمْ أَنَّهُ
دَانٍ يَنْتَظِرُ مَنْ يَمُدُّ سَيْفَهُ فَيَقْطَعُهُ !

وَفِي الْمَنْصُورَةِ كَانَتْ تُعَسِّكِرُ فِرْقَةُ الْمَمَالِكِ الْبَحْرِيَّةِ بِقِيَادَةِ
الْأَمِيرِ « بِيرْسِ » الَّذِي تَوَلَّى حُكْمَ مِصْرَ فِيمَا بَعْدَ ، وَعُرِفَ
بِاسْمِ « الظَّاهِرِ بِيرْسِ » . وَكَانَ « بِيرْسُ » قَدْ رَسَمَ مَعَ شَجَرَةِ
الدَّرِّ خُطَّةَ حَرْبِيَّةَ نَفَذَهَا بِنَجَاحٍ ، فَأَبْقَى فِرْقَةً مِنَ الْفُرْسَانِ

المُضْرِبِينَ فِي مَكْمَنٍ خَارِجِ الْمَنْصُورَةِ . . وَوَزَعَ بَقِيَّةَ الْجُنُودِ مِنْ مَمَالِكِ وَمِصْرِيِّينَ عَلَى مَوَاقِعَ مُتَفَرِّقَةٍ دَاخِلِ الْمَدِينَةِ ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَلْزُمُوا مَوَاقِعَهُمْ حَتَّى تَأْتِيَهُمْ إِشَارَتُهُ بِالْهُجُومِ . . وَطَلَبَ مِنَ الْأَهَالِي أَنْ يَظْلُوا فِي بُيُوتِهِمْ إِلَى أَنْ تَحِينَ اللَّحْظَةُ الْمُنَاسِبَةُ لِاشْتِرَاكِهِمْ فِي الْقِتَالِ . .

وَهَكَذَا دَخَلَ الصَّلِيبِيُّونَ الْمَنْصُورَةَ فَخِيلَ لِقَادَتِهِمْ أَنَّهُمْ يَدْخُلُونَ مَدِينَةً مَهْجُورَةً ، فَرَّ مِنْهَا جُنْدُهَا وَهَجَرَهَا أَهْلُهَا . . وَتَفَرَّقَ الْغَزَاةُ فِي الشُّوَارِعِ يُمْنُونَ أَنْفُسَهُمْ بِالسَّلْبِ وَالنَّهْبِ . وَفَجْأَةً تَحَرَّكَ فِرْقَةُ الْفُرْسَانِ الْكَامِنَةِ خَارِجَ الْمَدِينَةِ وَأَطْبَقَتْ عَلَى الصَّلِيبِيِّينَ مِنَ الْخَلْفِ ، وَبَرَزَ لَهُمُ الْمَمَالِكُ يُقَاتِلُونَهُمْ وَيُحِيطُونَ بِهِمْ . وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ هَبَّ الْأَهَالِي فِي أَنْحَاءِ الْمَدِينَةِ . . خَرَجَ بَعْضُهُمْ إِلَى الشُّوَارِعِ يَقْطَعُ عَلَى الْعَدُوِّ خَطَّ الرَّجْعَةِ ، وَصَعِدَ بَعْضُهُمْ إِلَى الْأَسْطُحِ يَرْمِي الصَّلِيبِيِّينَ بِكُلِّ مَا تَصِلُ إِلَيْهِ الْأَيْدِي . .

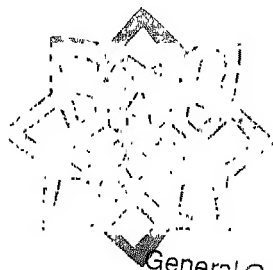
وَسُرْعَانَ مَا انْتَهَتْ الْمَعْرَكَةُ بَعْدَ أَنْ قُتِلَ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الصَّلِيبِيِّينَ ، فِيهِمْ « الْكُونْتِ آرْتُوا » وَفَرَّ الْبَاقُونَ . وَكَانَتْ

مَعْرَكَةُ الْمَنْصُورَةِ ، فِي الثَّامِنِ مِنْ فِبرَايرِ عامِ ١٢٥٠ المِيلادِيّ ،
 بِدَايَةِ لِسْلِسَلَةٍ مِنَ الْهَزَائِمِ أَوْقَعَهَا الْمِصْرِيُّونَ بِالصَّلِيبِيِّينَ . انْتَهَتْ
 بِأَسْرِ الْمَلِكِ «لُويْسِ التَّاسِعِ» وَالْآلَافِ مِنْ رِجَالِهِ . .
 وَهَكَذَا دَخَلَتِ الْحَمْلَةُ الْفَرَنْسِيَّةُ السَّابِعَةُ الْمَنْصُورَةَ ، أَسِيرَةً !
 وَفِي الدَّارِ الْمُخَصَّصَةِ لِرَئِيسِ دِيوَانِ الْإِنْشَاءِ ، الْقَاضِي «فَخْرُ
 الدِّينِ بْنِ لُقْمَانَ» أَقَامَ «لُويْسَ التَّاسِعَ» فِي حِرَاسَةِ جُنْدِيٍّ
 مِصْرِيٍّ هُوَ «الطَّوَّاشِيُّ صَبِيحُ» إِلَى أَنْ وَافَقَ عَلَى شُرُوطِ
 الْمِصْرِيِّينَ لِإِطْلَاقِ سَرَّاجِهِ . .

وَلَمْ يَمُضِ وَقْتُ طَوِيلٍ حَتَّى سَقَطَتْ رَايَاتُ الْعُدُوَانِ عَنْ
 دِمْيَاطَ وَرَفَرَفَتْ فَوْقَهَا رَايَاتُ الْإِسْلَامِ الْمُشْرِقَةِ . . وَأَنْشَدَ
 الشَّاعِرُ الْمِصْرِيُّ «جَمَالُ الدِّينِ بْنِ مَطْرُوحٍ» بِهَذِهِ الْمُنَاسَبَةِ
 يَقُولُ :

قُلْ لِلْفَرَنْسِيِّسِ إِذَا جِئْتُهُ	مَقَالَ صِدْقٍ مِنْ قَتُولِ نَصِيحٍ
أَتَيْتَ مِصْرًا تَبْتَغِي مُلْكَهَا	تَحْسَبُ أَنَّ الزَّمْرِيَّاءَ طَبْلُ رِيحٍ
وَكُلَّ أَصْحَابِكَ أَوْدَعْتَهُمْ	بِحُسْنِ تَدْيِيرِكَ بَطْنِ الضَّرِيحِ
سَبْعُونَ أَلْفًا لَا يَرَى مِنْهُمْ	إِلَّا قَتِيلٌ أَوْ أَسِيرٌ جَرِيحٍ

وَقُلْ لَهُمْ إِنْ أَرَمُوا عَوْدَةً
لَأُخَذَ ثَارٌ أَوْ لِفَعْلٍ قَبِيحٍ
وَالْقَيْدُ بَاقٍ وَالطَّوْاشِي صَبِيحٌ
دَارُ ابْنِ لُقْمَانَ عَلَى حَالِهَا



General Organization of the Alexandria
Library (GOAL)

Bibliotheca Alexandrina

١٩٩١ / ٣٦١٤	رقم الإيداع
ISBN 977-02-3256-4	الترقيم الدولي

١ / ٩١ / ٧٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

رايات الإسلام

- ١ - في اليمامة
- ٢ - في اليرموك
- ٣ - في القادسية
- ٤ - في عين شمس
- ٥ - في نهاوند
- ٦ - في ذات الصواري
- ٧ - في المغرب
- ٨ - في الأندلس
- ٩ - في حطين
- ١٠ - في المنصورة
- ١١ - في عين جالوت



دارالمهارف

ح
١٠٠